(١٠٩) سورة الكافرون مكية وآياتها ست

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة ، وروى أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن ، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهى عن المحرمات ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهى عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعاً للقرآن والله أعلم .



قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

اعلم أن قوله تعالى (قل) فيه فوائد : (أحدها) أنه عليه السلام كان مأموراً بالرفق واللين فى جميع الأمور كما قال (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ثم كان مأموراً بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن (وجادلهم بالتى هى أحسن) ولما كان الأمر كذلك ، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأنى مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسى فكان المراد من قوله قل تقرير هذا المعنى (وثانيها) أنه لما قيل له (وأنذر عشيرتك الأقربين) وهو كان يحب أقرباءه لقوله (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له (قل) ، (وثالثها) أنه لما قيل له (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه فلما قال الله تعالى له (قل يا أيها الكافرون) نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته كأنه قال إنه تعالى أمرنى بتبليغ كل ما أنزل على والذى أنزل على هو مجموع قوله (قل يا أيها الكافرون) فأنا أيضاً أبلغه إلى الخلق هكذا (ورابعها) أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع ، وأنه هو الذى خلقهم ورزقهم ، على ماقال

تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) والعبد يتحمل من مولاه مالا يتحمله من غيره ، فلو أنه عليه السلام قال ابتداء (يا أيها الكافرون) لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد ، فلعلهم ماكانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه . أما لما سمعوا قوله (قل) علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض ، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به (وخامسها) أن قوله (قل) يوجب كونه رسولا من عند الله ، فكلما قيل له (قل) كان ذلك كالمنشور الجديد فى ثبوت رسالته ، وذلك يقتضى المبالغة فى تعظيم الرسول ، فإن الملك إذا فوض مملكته إلى بعض عبيده ، فإذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشوراً جديداً دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه ، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيما وتشريفاً (وسادسها) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة ، فكأنه عليه السلام قال : أستأمرت إلهى فيه . فقال (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (وسابعها) الكفار قالوا فيه السوء ، فهو تعالى زجرهم عن ذلك ، وأجابهم وقال (إن شانئك هو الأبتر) وكأنه تعالى قال : حين ذكروك بسوء ، فأنا كنت المجيب بنفسى ، فحين ذكرونى بالسوء وأثبتوا لى الشركاء ، فكن أنت المجيب (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (وثامنها) أنهم سموك أبتر ، فإن شئت أن تستوفى منهم القصاص ، فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقاً فيه (قل يا أيها الكافرون) لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيبهم بما هو فعلهم (وتاسعها) أن بتقدير أن تقول : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه ، والكفار يقولون : هذا كلام ربك أم كلامك ، فإن كان كلام ربك فربك يقول : أنا لا أعبد هذه الأصنام ، ونحن لا نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك ، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك إنى لا أعبد هذه الأصنام ، فلم قلت إن ربك هو الذى أمرك بذلك ، أما لما قال قل ، سقط هذا الاعتراض لأن قوله (قل) يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها (وعاشرها) أنه لو أنزل قوله (يا أيها الكافرون) لكان يقرؤها عليهم لا محالة ، لأنه لا يجوز أن يخون فى الوحى إلا أنه لما قال (قل) كان ذلك كالتأكيد فى إيجاب تبليغ هذا الوحى إليهم ، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم . فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذى قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر فى غاية القبح ونهاية الفحش (الحادى عشر) كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف ، أما الآن لما قوينا قلبك بقولنا (إنا أعطيناك الكوثر) وبقولنا (إن شانئك هو الأبتر) فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (الثانى عشر) أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار ، أنه تعالى لا يكلمهم ، فلو قال (يا أيها الكافرون) لكان ذلك من حيث أنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم ، ومن حيث أنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء فينجبر الإيذاء بالإكرام ، أما لما قال (قل يا أيها الكافرون) فحينئذ يرجع تشريف

المخاطبة إلى محمد ﷺ ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار ، فيحصل فيه تعظيم الأولياء ، وإهانة الأعداء ، وذلك هو النهاية فى الحسن (الثالث عشر) أن محمداً عليه السلام كان منهم ، وكان فى غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم ، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب ، والأب الذى يكون فى غاية الشفقة بولده ، ويكون فى نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم فالولد إن كان عاقلا يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقته عليه إلا لصدقه فى ذلك ولأنه بلغ مبلغاً لا يقدر على إخفائه ، فقال تعالى (قل) يا محمد لهم (أيها الكافرون) ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة ، فربما يصير ذلك داعياً لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها (الرابع عشر) أن الإيذاء والايحاش من ذوى القربى أشد وأصعب من الغير فأنت من قبيلتهم ، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم (يا أيها الكافرون) فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم ، فيصير ذلك داعياً لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر (الخامس عشر) كأنه تعالى يقول ألسنا بينا فى سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وفى سورة الكوثر (إنا أعطيناك الكوثر) وأتيت بالإيمان والأعمال الصالحات ، بمقتضى قولنا (فصل لربك وانحر) بقى عليك التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وذلك هو أن تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله ، فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السادس عشر) كأنه تعالى يقول يا محمد أنسيت أننى لما أخرت الوحى عليك مدة قليلة ، قال الكافرون إنه ودعه ربه وقلاه ، فشق عليك ذلك غاية المشقة ، حتى أنزلت عليك السورة ، وأقسمت بالضحى (والليل إذا سجى) أنه (ما ودعك ربك وما قلى) فلما لم تستجز أن أتركك شهراً ولم يطب قلبك حتى ناديت فى العالم بأنه (ما ودعك ربك وما قلى) أفتستجيز أن تتركنى شهراً وتشتغل بعبادة آلهتهم فلما ناديت بنفى تلك التهمة ، فناد أنت أيضاً فى العالم بنفى هذه التهمة و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ، (السابع عشر) لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئاً ، لا لأنه جوز فى قلبه أن يكون الذى قالوه حقاً ، فإنه كان قاطعاً بفساد ما قالوه لكنه عليه السلام ، توقف فى أنه بماذا يجيبهم ؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذاباً ، فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا إن محمداً مال إلى ديننا ، فكأنه تعالى قال يا محمد إن توقفك عن الجواب فى نفس الأمر حق ولكنه أوهم باطلا ، فتدارك إزالة ذلك الباطل ، وصرح بما هو الحق و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (الثامن عشر) أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج أثن على استولى عليه هيبة الحضرة الالهية فقال لا أحصى ثناء عليك ، فوقع ذلك السكوت منه فى غاية الحسن فكأنه

قيل له إن سكت عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فأطلق لسانك فى مذمة الأعداء و (قل يا أيها الكافرون) حتى يكون سكوتك لله وكلامك لله ، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل ههنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار (التاسع عشر) لو قال له لاتعبد مايعبدون لم يلزم منه أن يقول بلسانه (لا أعبد ماتعبدون) أما لما أمره بأن يقول بلسانه (لا أعبد ماتعبدون) يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذبا ، فثبت أنه لما قال له قل (لا أعبد ماتعبدون) فلزمه أن يكون منكراً لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه . ولو قال له لا تعبد مايعبدون لزمه تركه ، أما (٩) لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان ، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه فى نفسه وأنكره بلسانه فقوله له (قل) يقتضى المبالغة فى الانكار ، فلهذا قال (قل .. لا أعبد ما تعبدون) ، (العشرون) ذكر التوحيد ونفى الانداد جنة للعارفين ونار للمشركين فاجعل لفظك جنة للموحدين وناراً للمشركين و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الحادى والعشرون) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة سكت محمد فقال إن شافهتهم بالرد تأذوا ، وحصلت النفرة عن الإسلام فى قلوبهم ، فكأنه تعالى قال له يا محمد لم سكت عن الرد ، أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك ، فلا حاجة بك فى هذا المعنى إليهم (فإنا أعطيناك الكوثر) وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك ، الخوف بقولنا إن شانئك هو الأبتر) فلا تلتفت إليهم ، ولا تبال بكلامهم ، (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثانى والعشرون) أنسيت يامحمد أنى قدمت حقك على حق نفسى ، فقلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) فقدمت أهل الكتاب فى الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين فى ، فقدمت حقك على حق نفسى وقدمت أهل الكتاب فى الذم على المشركين ، وأنت أيضا هكذا كنت تفعل فإنهم لما كسروا سنك قلت « اللهم اهدقومى » ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت «اللهم املأ بطونهم ناراً» فههنا أيضاً قدم حق على حق نفسك وسواء كنت خائفاً منهم ، أو لست خائفاً منهم فأظهر إنكار قولهم (وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثالث والعشرون) كأنه تعالى يقول قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة ، ثم إنى هناك مارضيت منك أن تضمر فى قلبك شيئاً ولا تظهره بلسانك ، بل قلت لك على سبيل العتاب (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فإذا كنت لم أرض منك فى تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار ، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك فى هذه المسألة ، وهى أعظم المسائل خطراً بالسكوت ، قل بصريح لسانك (يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الرابع والعشرون) يامحمد ألست قلت لك (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) ثم إنى مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت فى العالمين بأنى لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره ، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت (ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلا أن يشاركني غيري فى المعبودية أولى أن تنادى فى العالمين بنفى هذه الشركة . فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الخامس والعشرون) كأنه تعالى يقول القوم جاؤك وأطمعوك فى متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الإنكار والرد ، ألست أنا جعلت البيعة معك بيعة معي حيث قلت (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وجعلت متابعتك متابعة لى حيث قلت (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ثم إنى ناديت فى العالمين وقلت (إن الله برىء من المشركين ورسوله) فصرح أنت أيضاً بذلك ، و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ، (السادس والعشرون) كأنه تعالى يقول ألست أرأف بك من الوالد بولده ، ثم العرى والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب ، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى ، فقد جربتنى ، ألم أجدك يتيما وضالا وعائلا ، ألم نشرح لك صدرك ، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة ، وبعلى علماً ، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك ، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف ، ألم أعطك الكوثر ، ألم أضمن أن خصمك أبتر ، ألم يقل جدك فى هذه الأصنام بعد تخريبها (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) فصرح بالبراءة عنها و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) (السابع والعشرون) كأنه تعالى يقول يا محمد ألست قد أنزلت عليك (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) ثم إن واحداً لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه ، حتى قلت « ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح » فإذا لم تسكت عند التشريك فى الولادة ، فكيف سكت عند التشريك فى العبادة ! بل أظهر الإنكار ، وبالغ فى التصريح به ، و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ، (الثامن والعشرون) كأنه تعالى يقول يا محمد ألست قد أنزلت عليك (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) فحكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد فى المعبودية لا يكون عاقلا بل يكون مجنوناً ، ثم إنى أقسمت وقلت (ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) والكفار يقولون إنك مجنون ، فصرح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتى عن عيب الشرك ، وبراءتك عن عيب الجنون و (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ، (التاسع والعشرون) أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة ، والمشاركة فى الاسم لا توجب المشاركة فى المعنى ، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان فى الإنسانية حقيقة ، ثم القيمية كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر ، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق فى القيمية ، فمن لا قدرة له ولا علم البتة كيف يكون له حق فى القيومية ، بل ههنا شيء آخر : وهو أن امرأة لو ادعاها رجلان فاصطلحا عليها لا يجوز ، ولو أقام كل واحد منهما بينة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما ، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما ، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين ، ولا أمة بين موليين فى حل الوطء

فكيف يعقل عابد واحد بين معبودين ! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحل الزوجة لأحدهما شهراً ، ثم الثانى شهراً آخر كان كافراً ، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافراً فكأنه تعالى يقول لرسوله : إن هذه المقالة فى غاية القبح فصرح بالإنكار وقل (يا أيها الكافرون لاأعبد ما تعبدون) (الثلاثون) كأنه تعالى يقول أنسيت، أنى لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك (قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) إلى قوله (أجراً عظيما) ثم خشيت من عائشة أن تختار الدنيا ، فقلت لها لا تقولى شيئاً حتى تستأمرى أبويك ، فقالت أفى هذا أستأمر أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ! فناقصة العقل ماتوقفت فيما يخالف رضاى أتتوقف فيما يخالف رضاى وأمرى مع أنى جبار السموات والأرض (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الحادى والثلاثون) كأنه تعالى يقول : يامحمد ألست أنت الذى قلت : من كان يؤمن بالله و باليوم الآخر فلا يوقفن مواقف التهم ، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذى يريد أن يفارقه ، لاتخالف السلطان قال ولم ؟ قال : لأنه يوقع الناس فى أحد الخطأين ، وإما أن يعتقدوا أن السلطان متدين ، لأنه يخالطه العالم الزاهد ، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله ، وكلاهما خطأ ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يامحمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك ، لا سيما وقد سبق أن الشيطان ألقى فيما بين قراءتك : تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، فأزل عن نفسك هذه التهمة و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الثانى والثلاثون) الحقوق فى الشاهد نوعان حق من أنت تحت يده ، وهو مولاك ، وحق من هو تحت يدك وهو الولد ، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد ، فإذا كان حق المولى المجازى مقدماً ، فبأن يكون حق المولى الحقيقى مقدماً كان أولى ، ثم روى أن علياً عليه السلام إستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى التزوج بابنة أبى جهل فضجر وقال لا آذن لا آذن لا آذن أن فاطمة بضعة منى يؤذينى ما يؤذيها ويسرنى ما يسرها والله لا يجمع بين بنت عدو الله ، وبنت حبيب الله ، فكأنه تعالى يقول صرحت هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد ، فهنا أولى أن تصرح بالرد ، وتكرره رعاية لحق المولى فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ولا أجمع فى القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العـــدو (الثالث والثلاثون) يا محمد ألست قلت لعمر رأيت قصراً فى الجنة ، فقلت لمن ؟ فقيل لفتى من قريش ، فقلت من هو ، فقالوا عمر فخشيت غيرتك فلم أدخلها حتى قال عمر أو أغار عليك يارسول الله ، فكأنه تعالى قال خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره أفما تخشى غيرتى فى أن تدخل قلبك طاعة غيرى ، ثم هناك أظهرت الامتناع فههنا أيضاً أظهر الامتناع و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) ، (الرابع والثلاثون) أترى أن نعمتى عليك دون نعمة الوالدة ، ألم أربك ؟ ألم أخلقك ؟ ألم أرزقك ؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق ؟ ثم حين كنت طفلا عديم العقل وعرفت تربية الأم فلو أخذتك امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت

ولو أعطتك الثدى لسددت فمك تقول لاأريد غير الأم لأنها أول المنعم على ، فههنا أولى أن تظهر النفرة فنقول لا أعبد سوى ربى لأنه أول منعم على فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (الخامس والثلاثون) نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة ، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب لاينسيان نعمة الإطعام ولا يميلان إلى غير من أطعمهما فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد والإحسان فكيف فى حق أفضل الخلق (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السادس والثلاثون) مذهب الشافعى أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة فإذا لم تجد من الأنصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلا بها ، (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) فبتقدير أن كنت متصلا بها ، كان يجب أن تنفصل عنها وتتركها ، فكيف وما كنت متصلا بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) (السابع والثلاثون) هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة فى الإلهية كالكثرة فى المال يزيد به الغنى وليس الأمر كذلك بل هو كالكثرة فى العيال تزيد به الحاجة فقل يامحمد لى إله واحد أقوم له فى الليل وأصوم له فى النهار ، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه ، فكيف ألتزم عبادة آلهة كثيرة (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثامن والثلاثون) أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) فاستعاذت أن تميل إلى جبريل دون الله أفتستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (التاسع والثلاثون) مذهب أبى حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة يقول لأنه كان قيما فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب فالحق سبحانه يقول ، كنت قيما ولم أتعيب ، فكيف يجوز الاعراض عنى (قل يا أيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون) (الأربعون) هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال فى موضع آخر (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) فكأنه تعالى يقول هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل ، لأن البذر منى والتربية والسقى منى ، والحفظ منى ، فأى شىء للصنم ، أو شركة الوجوه وذلك أيضا باطل أترى أن الصنم أكثر شهرة وظهوراً منى ، أو شركة الأبدان وذلك أيضاً باطل ، لأن ذلك يستدعى الجنسية ، أو شركة العنان ، وذلك أيضاً باطل ، لأنه لابد فيه من نصاب فما نصاب الأصنام ، او يقول ليس هذه من باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيباً من الملك ، فكأن الرب يقول : ما أشد جهلكم إن هذا الصنم أكثر عجزاً من الذبابة (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً) فأنا أخلق البذر ثم ألقيه فى الأرض ، فالتربية والسقى والحفظ منى . ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيباً منى ، ماهذا بقول يليق بالعقلاء (قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون) (الحادى والأربعون) أنه لاذرة فى عالم المحدثات إلا وهى تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات

وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام ، ولما كان كل بق وبعوضة داعياً إلى معرفة الذات والصفات قال (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعوا إلى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله ، فكأنه تعالى يقول مثل هذا الشيء كيف يستحيا منه ، روى أن عمر رضى الله عنه كان فى أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشاً وحمله بنفسه فرآه علي من بعيد فتنكب علي عن الطريق فاستقبله عمر وقال له لم تنكبت عن الطريق ؟ فقال علي : حتى لا تستحي ، فقال : وكيف أستحي من حمل ماهو غذائي ! فكأنه تعالى يقول إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذي هو غذاؤه فى الدنيا فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذى يعطيك غذاء دينك ، ثم كأنه تعالى يقول يا محمد إن نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار ، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم أفلا تصرح بالرد عليهم (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) وإن فرعون لما ادعى الإلهية لجبريل ملأ فاه من الطين فإن كنت ضعيفاً فلست أضعف من بعوضة نمروذ ، وإن كنت قوياً فلست أقوى من جبريل ، فأظهر الإنكار عليهم و (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثانى والأربعون) كأنه تعالى يقول يا محمد (قل) بلسانك (لا أعبد ماتعبدون) واتركه قرضاً على فإنى أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه ، ألا ترى أن النصرانى إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله فأقول أنا لا أكتفى بهذا مالم تصرح بالبراءة عن النصرانية ، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت أيضاً أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيرى فقل (يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون) (الثالث والأربعون) أن موسى عليه السلام كان فى طبعه الخشونة فلما أرسل إلى فرعون قيل له (فقولا له قولا ليناً) وأما محمد عليه السلام فلما أرسل إلى الخلق أمر بإظهار الخشونة تنبيهاً على أنه فى غاية الرحمة ، فقيل له (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) .

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يا أيها ، قد تقدم القول فيها فى مواضع ، والذى نزيده ههنا ، أنه روى عن علي عليه السلام أنه قال . يا نداء النفس وأى نداء القلب ، وها نداء الروح ، وقيل : يا نداء الغائب وأى للحاضر ، وها للتنبيه ، كأنه يقول أدعوك ثلاثاً ولا تجيبنى مرة ما هذا إلا لجهلك الخفى ، ومنهم من قال إنه تعالى جمع بين يا الذى هو للبعيد ، وأى الذى هو للقريب ، كأنه تعالى يقول معاملتك معى وفرارك عنى يوجب البعد البعيد ، لكن إحسانى إليك ، ووصول نعمتى إليك توجب القرب القريب (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وإنما قدم يا الذى يوجب البعد على أى الذى يوجب القرب ، كأنه يقول التقصير منك والتوفيق منى ، ثم ذكرها بعد ذلك لأن

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾

ما يوجب البعد الذى هو كالموت وأى يوجب القرب الذى هو كالحياة ، فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت ، وتلك الحالة هى النوم ، والنائم لا بد وأن ينبه وها كلمة تنبيه ، فلهذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى فى سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، قالوا لرسول الله تعالى حتى نعبد إلهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل مصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة ونزل أيضاً قوله تعالى (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر ، واعلم أن الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة ، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤسهم شتموه وأيسوا منه ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم ذكرهم فى هذه السورة بالكافرين ، وفى الأخرى بالجاهلين ؟ (الجواب) لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلابدوأن تكون المبالغة ههنا أشد ، وليس فى الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقاً أو مقيداً ، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم ، كقوله عليه السلام فى علم الأنساب «علم لا ينفع وجهل لا يضر» .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لما قال تعالى فى سورة (لم تحرم) يا أيها الذين كفروا ، ولم يذكر قل ، وههنا ذكر قل ، وذكره باسم الفاعل (والجواب) الآية المذكورة فى سورة لم تحرم : إنما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولا إليهم فأزال الواسطة وفى ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين . فلذلك ذكره بلفظ الماضى ، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولا إليهم ، فلا جرم قال (قل يا أيها الكافرون) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله ههنا (قل يا أيها الكافرون) خطاب مع الكل أو مع البعض ؟ (الجواب) لا يجوز أن يكون قوله (لا أعبد ما تعبدون) خطاباً مع الكل ، لأن فى الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز أن يقول لهم (لا أعبد ما تعبدون) ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) خطاباً مع الكل ، لأن فى الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله ، فإذن وجب أن يقال إن قوله (يا أيها الكافرون) خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ، والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ، ولو حملناعلى أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك ، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى .

قوله تعالى : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد

وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾

ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية قولان (أحداهما) أنه لا تكرار فيها (والثانى) أن فيها تكراراً (أما الأول) فتقريره من وجوه (أحدها) أن الأول للمستقبل ، والثانى للحال والدليل على أن الأول للمستقبل أن لا لاتدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال ، ألن ترى أن لن تأكيد فيما ينفية لا ، وقال الخليل فى ان أصله لا أن ، إذا ثبت هذا فقوله (لا أعبد ما تعبدون) أى لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ، ثم قال (ولا أنا عابد ماعبدتم) أى ولست فى الحال بعابد معبودكم ولا أنتم فى الحال بعابدين لمعبودى (الوجه الثانى) أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثانى للاستقبال والدليل على أن قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا : أنا عابد ماعبدتم ولاشك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال أنا قاتل زيداً فهم منه الاستقبال (الوجه الثالث) قال بعضهم كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال ، ولكنا نخص أحداهما بالحال ، والثانى بالاستقبال دفعاً للتكرار ، فإن قلنا إنه أخبر عن الحال ، ثم عن الاستقبال ، فهو الترتيب ، وإن قلنا أخبر أولا عن الاستقبال ، فلأنه هو الذى دعوه إليه ، فهو الأهم فبدأ به ، فإن قيل مافائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم ، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله فى بعض الاحوال ؟ قلنا أما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سراً خوفاً منها أوطمعاً إليها وأما نفيه عبادتهم . فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلا (الوجه الرابع) وهو اختيار أبى مسلم أن المقصود من الأولين المعبود وما بمعنى الذى ، فكأنه قال لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله ، وأما فى الآخيرين فما مع الفعل فى تأويل المصدر أى لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون عبادتى المبنية على اليقين ، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهى ، كان ذلك باطلا لأن العبادة فعل مأمور به وماتفعلونه أنتم ، فهو منهى عنه ، وغير مأمور به (الوجه الخامس) أن تحمل الأولى على نفى الاعتبار الذى ذكروه ، والثانية على النفى العام المتناول لجميع الجهات فكأنه أولا قال (لا أعبد ماتعبدون) رجاء أن تعبدوا الله ، ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قال ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض ، ومقصود من المقاصد البتة بوجه من الوجوه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) بوجه من الوجوه ، واعتبار من الاعتبارات ، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعم ، فيقول لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلا لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض (القول الثانى) وهو أن نسلم حصول التكرار ، وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه (الأول) أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير

أحسن ، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ في هذا المعنى مراراً ، وسكت رسول الله عن الجواب ، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل ، فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال (الوجه الثاني) أنه كان القرآن ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالمشركون قالوا استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك فأنزل الله (ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً فأنزل الله (ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد) ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملا لم يكن التكرار على هذا الوجه مضراً البتة (الوجه الثالث) أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهكم فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافا به واستحقاراً لقوله ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ في الآية سؤال وهو أن كلمة (ما) لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أجابوا عنه من وجوه (أحدها) أن المراد منه الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق (وثانيها) أن مصدرية في الجملتين كأنه قال لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل ، ثم قال ثانياً لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال (وثالثها) أن يكون ما بمعنى الذي وحينئذ يصح الكلام (ورابعها) أنه لما قال أولا (لاأعبد ماتعبدون) حمل الثاني عليه ليتسق الكلام كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) والخبر الصدق عن عدم الشيء يضاد وجود ذلك الشيء فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين ، واعلم أنه بقي في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أليس أن ذكر الوجه الذي لأجله تقبح عبادة غير الله كان أولى من هذا التكرير ؟ الجواب بل قد يكون التأكيد والتكرير أولى من ذكر الحجة ، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة أو لأجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فالمناظرة في مسألة الجبر والقدر حسنة ، أما القائل بالصنم فهو إما مجنون يجب شده أو عاقل معاند فيجب قتله ، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه ، والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية :

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن أول السورة اشتمل على التشديد ، وهو النداء بالكفر والتكرير وآخرها على اللطف والتساهل ، وهو قوله (لكم دينكم ولي دين) فكيف وجه الجمع بين الأمرين ؟

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

(الجواب) كأنه يقول إنى قد بالغت فى تحذيركم على هذا الأمر القبيح ، وما قصرت فيه ، فإن لم تقبلوا قولى ، فاتركونى سواء بسواء .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لما كان التكرار لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغى أن يقول : لن أعبد ما تعبدون ، لأن هذا أبلغ ، ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا (لن ندعو من دونه إلهاً) (والجواب) المبالغة إنما يحتاج إليها فى موضع التهمة ، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع ، فكيف يعبده بعد ظهور الشرع ، بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل .

قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ ففيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس لكم كفركم بالله ولى التوحيد والإخلاص له ، فإن قيل فهل يقال إنه أذن لهم فى الكفر قلنا ، كلا فإنه عليه السلام مابعث إلا للمنع من الكفر فكيف يأذن فيه ، ولكن المقصود منه أحد أمور (أحدها) أن المقصود منه التهديد ، كقوله اعملوا ما شئتم (وثانيها) كأنه يقول إنى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فاتركونى ولا تدعونى إلى الشرك (وثالثها) (لكم دينكم) فكرنوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم (ولى دينى) لأنى لا أرفضه (القول الثانى) فى تفسير الآية أن الدين هو الحساب أى لكم حسابكم ولى حسابى ، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر البتة (القول الثالث) أن يكون على تقدير حذف المضاف أى لكم جزاء دينكم ولى جزاء دينى وحسبهم جزاء دينهم وبالا وعقاباً كما حسبك جزاء دينك تعظيما وثواباً (القول الرابع) الدين العقوبة (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله يعنى الحد ، فلكم العقوبة من ربى ، ولى العقوبة من أصنامكم ، لكن أصنامكم جمادات ، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام ، وأما أنتم فيحق لكم عقلا أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض (القول الخامس) الدين الدعاء ، فادعوا الله مخلصين له الدين ، أى لكم دعاؤكم (ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) (وإن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم ، بل يوم القيامة يجدون لساناً فيكفرون بشرككم ، وأما ربى فيقول (ويستجيب الذين آمنوا) (ادعونى أستجب لكم) (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (القول السادس) الدين العادة ، قال الشاعر :

يقول لها وقد دارت وضينى أهذا دينها أبدا ودينى

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ، ولى عادتى المأخوذة من الملائكة والوحى ، ثم يبقى كل واحد منا على عادته ، حتى تلقوا الشياطين والنار ، وألقى الملائكة والجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لكم دينكم) يفيد الحصر ، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم ، ولى دينى لا لغيرى ، وهو إشارة إلى قوله (وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى أنا مأمور بالوحى والتبليغ ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول ، فأنا لما فعلت ما كلفت به خرجت عن عهدة التكليف ، وأما إصراركم على كفركم ، فذلك مما لا يرجع إلى منه ضرر البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا ، وعلى آله وصحبه وسلم .



سورة «الكافرون»

وهي مكيةٌ في قول ابنِ مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِيةٌ في أحدِ قولي ابنِ عباسٍ وقتادةَ والضحَّاك[1]. وهي ستُّ آياتٍ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أنسٍ: «أنَّها تَعْدِلُ ثلثَ القرآن»[2]. وفي كتاب «الرد» لأبي بكر الأنباريِّ: أخبرنا عبد الله بن ناجية، قال: حدَّثنا يوسف، قال: حدَّثنا القعنبيُّ وأبو نعيم، عن موسى بن وَرْدان، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعدِلُ ربعَ القرآن»[3]. ورواه موقوفاً عن أنس.

وخرَّج الحافظ أبو محمد عبدُ الغنيِّ بنُ سعيد عن ابن عمر قال: صلَّى النبيُّ ﷺ بأصحابه صلاةَ الفجرِ في سفر، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأتُ بكم ثلثَ القرآنِ ورُبعَه»[4].

وروى جُبير بن مُطعِم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ سفَرًا أن تكون من أَمْثَلِ أصحابِك هيئةً وأكثرِهم زاداً»؟ قلتُ: نعم. قال: «فاقرأ هذه السورَ الخمسَ؛ من أوّل «قل يا أيها الكافرون ـ إلى ـ قل أعوذُ بربِّ الناس»، وافتتِحْ قراءتَك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنتُ غنيًّا[5] كثير المالِ، إذا سافرتُ أكونُ أَبَذَّهم هَيئةً، وأقلَّهم زاداً، فمذ قرأتهنَّ صرتُ مِن أحسنهم هيئةً، وأكثرِهم زاداً، حتى أرجعَ من سفري ذلك[6].

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ: قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٥٧ .

(٢) لم نقف على هذا الحديث، والذي في سنن الترمذي: ربع القرآن، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) و(٢٨٩٥)، وسلف ص ١٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٨٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد ٧/ ٢٥٨ و٢٦٠ .

(٥) في النسخ: غير، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أبو يعلى (٧٤١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٤ : رواه أبو يعلى وفيه مَن لم أعرفهم. وذكره الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٨ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠٦ ونسباه لأبي يعلى.

منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره[١].

وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدُّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك.

وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقِشتان، أي: أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال لِلقَرح والجُدَريّ إذا يبِس وتقرَّف، وللجَرَب في الإبل إذا قَفَل: قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾

ذكر ابن إسحاقَ وغيره عن ابن عباس: أن سببَ نزولها أن الوليدَ بن المغيرة، والعاصَ بن وائل، والأسودَ بن المُطَّلب[٣]، وأُمية بن خَلَف؛ لَقُوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلتعبدْ ما نعبد، ونَعْبد ما تَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلِّه، فإن كان الذي جئتَ به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأَخذنا بحظِّنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنتَ قد شَرِكتنا في أمرنا، وأخذتَ بحظِّك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو اسْتَلَمْتَ بعضَ هذه الآلهة لَصدَّقناك، فنزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذَوه، وآذَوا

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي بعد الحديث (٣٤٠٣) بنحوه. والرجل الذي قال النبي ﷺ: أوصني، هو نوفل الأشجعي أبو فروة رضي الله عنهما.

(٢) الصحاح (قشش).

(٣) في النسخ والنكت والعيون ٦/ ٣٥٧ (والكلام منه دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما): الأسود بن عبد المطلب، والخبر في السيرة النبوية ١/ ٣٦٢ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٥٠٥ ـ دون نسبة ـ وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٠٣ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٣٧ ونسبه لسعيد بن ميناء. والمثبت من هذه المصادر.

أصحابَه[١]. والألفُ واللامُ ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفةً لأيّ؛ لأنها مُخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفره، فهي من الخُصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماورديّ[٢]: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمَنَ فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كُفره، وهم المُخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ مَن طعن في القرآن: «قُلْ لِلذين كَفَروا لا أَعْبد ما تَعْبُدون» وزعَم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراءٌ على ربِّ العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطالُ ما قصده الله من أن يُذِلَّ نبيُّه المشركين[٣] بخطابه إيَّاهم بهذا الخطاب الزرِيّ[٤]، وإلزامهم ما يأنَفُ منه كلُّ ذي لُبٍّ وحِجًا. وذلك أن الذي يدَّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفِهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون، دليلُ صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أَقْبِلْ إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيدُ، أَقْبِلْ إلينا. فقد وقعت قراءتُنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسنُ لفظٍ وأبلغُ معنى؛ إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا[٥] يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكُفر، ويُدخَلوا في جُملة أهله إلّا وهو محروسٌ ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يَدٌ، أو تقع به من جهتهم أَذِية. فمن لم يقرأ «قُلْ يا أَيُّها الكافرون» كما أنزلها الله، أسقط آيةً لرسول الله ﷺ. وسبيلُ أهل الإسلام ألا يُسارعوا إلى مِثْلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إيَّاها، وشرَّفه بها.

وأما وجهُ التكرار فقد قيل: إنه للتأكيد في قَطْع أطماعهم؛ كما تقول: والله، لا

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور ٦/ ٤٠٤ ـ وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٣٥ دون نسبة.
(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٥٧.
(٣) في (م): للمشركين، والمثبت من النسخ الخطية.
(٤) في (د): الرديء.
(٥) قوله: لا، ليس في (د) و(م).

أَفعلُ كذا، ثم والله لا أَفعلُه.

قال أكثرُ أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التَّكرار إرادةَ التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادةَ التخفيف والإيجاز[1]؛ لأن خُروجَ الخطيب والمتكلِّم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: اِرْمِ اِرْمِ، اعجَلْ اعجَلْ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «فلا آذنُ، ثم لا آذنُ، إنما فاطمةُ بَضْعةٌ مني» خرَّجه مسلم[2].

وقال الشاعر:

هلا سألتَ جموعَ كِنْـ ـدَةَ يومَ ولَّوْا أَيْنَ أَيْنَا[3]

وقال آخر:

يا لَبَكْرٍ أَنْشِروا لي كُلَيْباً يا لَبَكْرٍ أينَ أينَ الفِرارُ[4]

وقال آخر:

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ خيرَ تميم كُلِّها وأَكْرَمَهْ[5]

وقال آخر:

يا أَقرعُ بنَ حابسٍ يا أَقرَعُ إنكَ إنْ يُصْرَع أخوكَ تُصْرَعُ[6]

وقال آخر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣٥ .

(٢) في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٨٩٢٦).

(٣) البيت لعَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢ .

(٤) البيت لمهلهِل، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٥ ، والخزانة ٢/ ١٦٢ .

(٥) لم نقف على قائله، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون ١١/ ١٣٣ .

(٦) سلف ٥/ ٢٨٢ .

أَلَا يا اسلَمِي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ثَلاثُ تَحِيَّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمِي[١]

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلهَتنا ونعبدُ إلهَكَ، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهَتنا ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبدًا سَنَةً وسنة. فأُجيبوا عن كل ما قالوه بضِدِّه؛ أي: إنَّ هذا لا يكون أبداً.

قال ابن عباس: قالت قريش للنبيِّ ﷺ: نحن نُعطيك من المال ما تكون به أغنَى رجلٍ بمكة، ونزوِّجك مَنْ شئت، ونطأ عَقِبَك ـ أي: نمشي خَلْفَك ـ وتَكُفُّ عن شَتْم آلهتنا، فإنْ لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلةً واحدة هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهَتنا: اللاتَ والعُزّى سنةً، ونحن نعبدُ إلهكَ سنةً؛ فنزلت السورة[٢]. فكان التكرار في «لا أعبدُ ما تعبدون»؛ لأن القوم كرَّروا عليه مقالَهم مرةً بعد مرة. والله أعلم.

وقيل: إنما كرَّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي: «لا أعبدُ» الساعةَ «ما تعبدون. ولا أنتم عابدون» الساعةَ «ما أَعبدُ». ثم قال: «ولا أنا عابِدٌ» في المستقبل «ما عبدتم. ولا أنتم» في المستقبل «عابِدون ما أَعبدُ». قاله الأخفش والمبرّد[٣].

وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملُّوا وَثَنًا، وسَئِموا العبادةَ له رَفَضوه، ثم أخذوا وَثَناً غيرَه بشهوةِ نُفوسهم، فإذا مرُّوا بحجارة تُعجبهم أَلْقَوا هذه، ورفعوا تلك، فعظَّموها ونصبوها آلهةً يعبدونها، فأُمِر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم: «لا أعبدُ ما تعبدون» اليومَ من هذه الآلهةِ التي بين أيديكم. ثم قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وانما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» أي: بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتُم على هذه. «ولا أنتم عابدون ما أعبد» فإني أَعبدُ إلهي.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «لا أَعبدُ ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أَعبدُ» في الاستقبال. وقوله: «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتُم» على نَفْي العبادة منه لِمَا عَبَدوا في

(١) البيت لحُميد بن ثور الهلالي، وهو في يوانه ص ١٣٣ ، وفيه: بلى فاسلمي، بدل: ألا يا اسلمي.
(٢) أخرجه الطبري ٢٤/٧٠٣ .
(٣) قول الأخفش ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣٥٨ ، وأبو حيان في البحر ٨/٥٢١ . وقول المبرد ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/٣٠١ .

الماضي. ثم قال: «ولا أنتم عابِدون ما أَعبد» على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يُوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عَبدتُ، فعدلَ عن لفظ عَبدتُ إلى أَعبدُ، إشعاراً بأنَّ ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدُهما موقعَ الآخر. وأكثرُ ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل.

وقال: «ما أعبدُ»، ولم يقل: مَنْ أعبدُ؛ لِيقابل به «ولا أنا عابِدٌ ما عبدتم» وهي أصنامٌ وأوثان، ولا يصلحُ فيها إلا «ما» دون «مَنْ» فحُمل الأوّل على الثاني، لِيتقابل الكلام ولا يتنافى[1]. وقد جاءت «ما» لمن يعقل، ومنه قولهم: سبحان ما سخركنَّ لنا.

وقيل: إنَّ معنى الآيات وتقديرَها: قل: يا أيها الكافرون، لا أَعبدُ الأصنامَ التي تعبدُونها، ولا أنتم عابدون اللهَ عز وجل الذي أعبدُه؛ لإشراكِكم به، واتِّخاذكم الأصنام، فإنْ زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبدُ ما عبدتُم، أي: مثلَ عبادتكم، فـ «ما» مصدرية. وكذلك «ولا أنتم عابِدون ما أعبد» مصدرية أيضاً؛ معناه: ولا أنتم عابدون مثلَ عبادتي التي هي توحيده سبحانه وتعالى، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] أي: إنْ رَضِيتُم بدينكم، فقد رَضِينا بديننا. وكان هذا قبلَ الأمر بالقتال، فَنُسِخَ بآية السيف. وقيل: السورة كلُّها منسوخة. وقيل: ما نُسِخَ منها شيء لأنها خبر[2]. ومعنى «لكم دِينكم» أي: جزاءُ دينكم، ولي جزاءُ ديني. وسمّى دينَهم ديناً، لأنهم اعتقدوه وَتَوَلَّوه. وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء.

وفتح الياء من «ولِيَ دِينِ» نافع، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه، وهشام عن

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٥٤ - ١٥٥، وزاد المسير ٩/ ٢٥٤.

ابن عامر، وحفص عن عاصم[1]. وأثبت الياء في «ديني» في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب[2]؛ قالوا: لأنها اسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠] ونحوه، اكتفاءً بالكسرة، واتباعاً لخطّ المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهى مكية [١].

ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ،وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى ركعتى الطواف [٢] .

وفى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب،بضعا وعشرين مرة ـ أو: بضع عشرة مرة ـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [٣] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رمقت النبى ﷺ أربعاً وعشرين ـ أو : خمسا وعشرين ـ مرة ، يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ،والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [٤] .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ـ هو محمد بن عبد الله بن الزبير الزبيرى ـ حدثنا سفيان ـ هو الثورى ـ عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمقتُ النبى ﷺ شهراً ، وكان يقرأ فى الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث أبى أحمد الزبيرى [٥] . وأخرجه النسائى من وجه آخر ، عن أبى إسحاق ، به [٦] . وقال الترمذى :هذا حديث حسن .

وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم [٧] بن القاسم ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، عن فروةَ ابن نَوفل ـ هو ابن معاوية ـ عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال له : « هل لك فى ربيبة لنا تكفلها؟» قال : أراها زينب . قال : ثم جاء فسأله النبى ﷺ عنها ، قال : « ما فعلت الجارية ؟» قال: تركتها عند أمها . قال : « فمجيء ما جاء بك ؟» قال : جئت لتعلمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك». تفرد به أحمد[٨] .

---

(١) بعدها فى م : البسملة .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث طويل وهو منسك جابر المشهور .

(٣) المسند (٢/ ٢٤) .

(٤) المسند (٢/ ٩٩) .

(٥) المسند (٢/ ٩٤) وسنن الترمذى برقم (٤١٧) وسنن ابن ماجة برقم (١١٤٩) .

(٦) سنن النسائى (٢/ ١٧٠) .

(٧) فى أ : « هشيم » .

(٨) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥/ ٤٢٥) .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عَمرو القطرانى ، حدثنا محمد بن الطفيل ، حدثنا شريك ، عن أبى إسحاق ، عن جبلة بن حارثة ــ وهو أخو زيد بن حارثة ــ أن النبى ﷺ قال : «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك» [١]. [والله أعلم وهو حسبى ونعم الوكيل] [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن أبى إسحاق ، عن فروة بن نوفل ، عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمنى شيئا أقوله عند منامى . قال : « إذا أخذت مضجعَك من الليل فاقرأ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، فإنها براءة من الشرك » [٣] .

وروى الطبرانى من طريق شريك ، عن جابر [٤] ، عن معقل الزبيدى ، عن [عباد أبى الأخضر عن خباب] [٥]، أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون﴾ حتى يختمها[٦] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون، وهى آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون﴾، شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين[٧] بهذا الخطاب هم كفارُ قريش.

وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعنى : من الأصنام والأنداد ، ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ،وهو الله وحده لا شريك له. فـ « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ أى: ولا أعبد عبادتكم ، أى : لا أسلكها ولا أقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم:٢٣] ، فتبرأ منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده ، وعبادة [٨]

(١) المعجم الكبير (٢/٢٨٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٢١) : « رجاله وثقوا » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند ، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٢/ ٢٢٠) .

(٤) وقع فى المعجم الكبير : « عن شريك وجابر » مقروناً وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٥) زيادة من المعجم الكبير (٤/٨١) .

(٦) المعجم الكبير (٤/ ٨١) ورواه البزار فى مسنده برقم (٣١١٣) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٢١) : « وفيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف » .

(٧) فى أ : « ولكن المواجهون » .

(٨) فى م : « وعبادته » .

يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ **لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [القصص: ٥٥] .

وقال البخارى : يقال : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ** ﴾: الكفر ، ﴿ **وَلِيَ دِينِ** ﴾ : الإسلام. ولم يقل : « دينى » لأن الآيات بالنون، فحذف الياء ، كما قال: ﴿**فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿**يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: ٨٠] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ **وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾ [المائدة: ٦٤] .

انتهى ما ذكره (١) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦]، وكقوله: ﴿ **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٦، ٧] . وحكاه بعضهم ــ كابن الجوزى ، وغيره ــ عن ابن قتيبة ، فالله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثانى : ما حكاه البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ : فى الماضى ، ﴿ **وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ : فى المستقبل. الثالث : أن ذلك تأكيد محض .

وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تَيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ **لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ **وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الإسمية آكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا . وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة تُورثه (٢) اليهود من النصارى ، وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ــ ما عدا الإسلام ــ كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

آخر تفسير سورة « قل يا أيها الكافرون » ولله الحمد والمنة

---

(١) صحيح البخارى (٨/ ٧٣٣) « فتح » .

(٢) فى م : « فورث » .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٢/ ١٩٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٩١١) .

١٠٩ ـ سورة الكافرون
(مكية وهى ست آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ١٠٩ الكافرون

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ١٠٩ الكافرون

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ١٠٩ الكافرون

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ ١٠٩ الكافرون

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ ١٠٩ الكافرون

حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة لك فى الآخرة ما لا يندرج تحت البيان وقيل نزلت فى العاص بن وائل وأياً ما كان فلا ريب وفى عموم الحكم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى من كل نهر فى الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر .

﴿ سورة الكافرون مكية وآيها ست ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (قل يأيها الكافرون) هم كفرة مخصوصون قد علم الله تعالى أنه لا يتأتى
منهم الإيمان أبداً . روى أن رهطاً من عتاة قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هلم فاتبع ديننا
ونتبع دينك تعبد آلهتنا ونعبد إلهك سنة فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا
نصدقك ونعبد إلهك فنزلت فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها
٢ عليهم فأيسوا (لا أعبد ما تعبدون) أى فيما يستقبل لأن لا لا تدخل غالباً إلا على مضارع فى الاستقبال
كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال والمعنى لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة
٣،٤ آلهتكم (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهى (ولا أنا
عابد ما عبدتم) أى وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه أى لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية
٥ فكيف ترجى منى فى الإسلام (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا
على عبادته وقيل هاتان الجملتان لنفى العبادة حالا كما أن الأولين لنفيها استقبالا وإنما لم يقل ما عبدت

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ١٠٩ الكافرون

ليوافق ماعبدتم لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً
بعبادة الله تعالى وإيثار ما فى أعبد على من لأن المراد هو الوصف كأنه قيل ما أعبد من المعبود العظيم
الشأن الذى لايقادر قدر عظمته وقيل إن ما مصدرية أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى وقيل
الأوليان بمعنى الذى والأخريان مصدريتان وقيل قوله تعالى ولا أنا عابد ما عبدتم تأكيد لقوله تعالى
لا أعبد ماتعبدون وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد ثانياً تأكيد لمثله المذكور أولا وقوله تعالى
٦ (لكم دينكم) تقرير لقوله تعالى لا أعبد ماتعبدون وقوله تعالى ولا أنا عابد ماعبدتم كما أن قوله تعالى
* (ولى دين) تقرير لقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد والمعنى أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور
على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى أيضاً كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة فإن
ذلك المحالات وأن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لايتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً
لأنكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم أو استلامى إياها ولأن ماوعدتموه عين الإشراك وحيث
كان مبنى قولهم تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة على شركة الفريقين فى كلتا العبادتين كان القصر المستفاد
من تقديم المسند قصر إفراد حتما ويجوز أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى ولا أنا عابد ماعبدتم أى
ولى دينى لادينكم كما هو فى قوله تعالى ولكم ما كسبتم وقيل المعنى إنى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق
والنجاة فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى كفافا ولا تدعونى إلى الشرك فتأمل . عن النبى صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من
الشرك وتعافى من الفزع الأكبر .



وتسمى المقشقشة كما أخرجه ابن أبي حاتم على زرارة بن أوفى وهو من قشقش المريض إذا صح وبرأ أي المبرئة من الشرك والنفاق. وتسمى أيضاً كما في جمال القراء سورة العبادة وكذا تسمى سورة الإخلاص وهي عند ابن عباس والجمهور مكية. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير أنها مدنية وحكاه في البحر عن قتادة على خلاف ما في مجمع البيان من أنه قائل بمكيتها وأيًّا ما كان فقول الدواني إنها مكية بالاتفاق ليس في محله. وآيها ست بلا خلاف وفيها إعلان ما فهم مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة له عز وجل ويكفي ذلك في المناسبة بينهما. وقال رسول الله ﷺ لجبلة بن حارثة وهو أخو زيد بن حارثة وقد قال له عليه الصلاة والسلام علمني شيئاً أقوله عند منامي نحو ذلك كما في حديث أخرجه الإمام أحمد والطبراني في الأوسط، وأمر ﷺ أنساً بأن يقرأها عند منامه أيضاً معللاً لذلك بما ذكر كما أخرجه البيهقي في الشعب وأمر عليه الصلاة والسلام خباباً بذلك أيضاً كما في حديث أخرجه البزار وابن مردويه. وأخرج أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً «ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تعالى تقرؤون ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] عند منامكم». وروى الديلمي عن عبد الله بن جراد قال: قال رسول الله ﷺ: «المنافق لا يصلي الضحى ولا يقرأ **﴿قل يا أيها الكافرون﴾**» ويسن قراءتها أيضاً مع سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١] في ركعتي سنة الفجر التي هي عند الأكثرين أفضل السنن الرواتب وكذا في الركعتين بعد المغرب[1] وهي حجة على من قال من الأئمة إنه لا يسن في سنة الفجر ضم سورة إلى الفاتحة. وجاء في حديث أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر مرفوعاً وفي آخر أخرجه في الصغير عن سعد بن أبي وقاص كذلك أنها تعدل ربع القرآن ووجه ذلك الإمام بأن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات وكل منهما إما أن يتعلق بالقلب أو بالجوارح فيكون أربعة أقسام وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بالقلب فتكون كربع

---

(١) قوله وهي حجة الضمير عائد على مضروب عليه في نسخة المؤلف نصه، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رمقت النبي ﷺ خمساً وعشرين مرة ـ وفي لفظ شهراً ـ فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** و **﴿قل هو الله أحد﴾** وفي حديث أخرجه ابن ماجة وابن حبان عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «نعم السورتان مما يقرآن في الركعتين قبل الفجر **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** و **﴿قل هو الله أحد﴾** إلى غير ذلك من الأخبار وهي حجة الخ اهـ منه.

القرآن، وتعقب بأن العبادة أعم من القلبية والقالبية والأمر والنهي المتعلقان بها لا يختصان بالمأمورات والمنهيات القلبية والقالبية، وأن مقاصد القرآن العظيم لا تنحصر في الأمر والنهي المذكورين بل هو مشتمل على مقاصد أخرى كأحوال المبدأ والمعاد ومن هنا قيل لعل الأقرب أن يقال إن مقاصد القرآن التوحيد والأحكام الشرعية وأحوال المعاد والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولاً بالذات والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى وعبادة الله عز وجل إذ التخصيص له جزآن النفي عن الغير والإثبات للمخصص به، فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة. وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه والتبري منها فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن ولكونها ليس فيها التصريح بالأمر بعبادة الله عز وجل كما أن فيها التصريح بترك عبادة غيره تعالى لم تكن كنصف القرآن وقيل: إن مقاصد القرآن صفاته تعالى والنبوات والأحكام والمواعظ وهي مشتملة على أساس الأول وهو التوحيد ولذا عدلت ربعه، وذكر بعض أجلّة أحبابي المعاصرين أوجهاً في ذلك أحسنها فيما أرى أن الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع: عبادات ومعاملات وجنايات ومناكحات، والسورة متضمنة للنوع الأول فكانت ربعاً. وتعقب بأنه أراد فكانت ربعاً من القرآن فلا نسلم صحة تفريعه على كون الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع وإن أراد فكانت ربعاً من الدين فليس الكلام فيه إنما الكلام في كونها تعدل ربعاً من القرآن إذ هو الذي تشعر به الأخبار على اختلاف ألفاظها والتلازم بينهما غير مسلم على أن المقابلة الحقيقية بين ما ذكر من الأنواع غير تامة. وأجيب باحتمال أنه أراد أن مقاصد القرآن هي تلك الأربعة التي هي الدين ولا يبعد أن يكون ما تضمن واحداً منها عدل القرآن كله مقاصده وغيرها. ولا يرد على الحصر أن من مقاصده أحوال المبدأ والمعاد فبدخول ذلك في العبادات بنوع عناية وعدم التقابل الحقيقي لا يضر إذ يكفي في الغرض عدّ أهل العرف تلك الأمور متقابلة ولو بالاعتبار فتأمل جميع ذلك والله تعالى الهادي لأقوم المسالك.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا
عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ قال أجلة المفسرين: المراد بهم كفرة من قريش مخصوصون قد علم الله تعالى أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبداً. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله تعالى **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** حتى انقضت السورة. وفي رواية أن رهطاً من عتاة قريش قالوا له ﷺ: هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال عليه الصلاة والسلام: «معاذ الله تعالى أن أشرك بالله سبحانه غيره». فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت فعدا ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام عليه الصلاة والسلام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا. ولعل نداءهم «بيا

أيها» للمبالغة في طلب إقبالهم لئلا يفوتهم شيء مما يلقى إليهم، «وبالكافرون» دون الذين كفروا لأن الكفر كان دينهم القديم ولم يتجدد لهم، أو لأن الخطاب مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر فهو كاللازم لهم أو للمسارعة إلى ذكر ما يقال لهم لشدة الاعتناء به وبه دون المشركين مع أنهم عبدة أصنام والأكثر التعبير عنهم بذلك لأن ما ذكر أنكى لهم فيكون أبلغ في قطع رجائهم الفارغ. وقيل: هذا للإشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة ولا يبعد أن يكون في هذه الإشارة إنكاء لهم أيضاً وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديهم ومكان بسطة أيديهم دليل على عدم اكتراثه عليه الصلاة والسلام بهم إذ المعنى قل يا محمد، والمراد حقيقة الأمر خلافاً لصاحب التأويلات للكافرين يا أيها الكافرون ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ يتراءى أن فيه تكراراً للتأكيد، فالجملة الثالثة المنفية على ما في البحر توكيد للأولى على وجهه أبلغ لاسمية المؤكدة، والرابعة توكيد للثانية وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفرّاء وقال: إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى والممتنع لا لا. وعليه قوله تعالى ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: ٣] وأنشد قوله:

كائن وكم عندي لهم من صنيعة ... أيادي سنوها عليّ وأوجبوا

وقوله:

نعق الغراب ببين ليلى غدوة ... كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وقوله:

هلا سألت جموع كنـ ... ـدة يوم ولوا أين أينا

وهو كثير نظماً ونثراً، وفائدة التأكيد ها هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبداً. واعترض بأن تأكيد الجمل لا يكون مع العاطف إلاّ بثم وكأن القائل بذاك قاس الواو على ثم، والظاهر أن من قال بالتأكيد جعل الجملة الرابعة معطوفة على الثالثة، وجعل المجموع معطوفاً على مجموع الجملتين الأوليين فهناك مجموعان متعاطفان يؤكد ثانيهما أولهما ولمغايرة الثاني للأول بما فيه من الاستمرار عطف عليه بالواو فلا يرد ما ذكر، ويتضمن ذلك معنى تأكيد الجزء الأول من الثاني للجزء الأول من الأول وتأكيد الجزء الثاني من الثاني للجزء الثاني من الأول، وإلاّ فظاهر ما في البحر مما لا يكاد يجوز كما لا يخفى والذي عليه الجمهور أنه لا تكرار فيه لكنهم اختلفوا فقال الزمخشري ﴿**لا أعبد**﴾ أريد به نفي العبادة فيما يستقبل لأن لا لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الاستقبال كما أن ما لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الحال، والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي، وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه، وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته. والظاهر أنه اعتبر في الجملة الأخيرة استمرار النفي وأنه حمل المضارع فيها على إفادة الاستمرار والتصوير، وفي الثانية استغرق النفي للأزمنة الماضية. وقال الطيبي: إنه جعل القرينتين للأوليين للاستقبال والأخريين للماضي، واعترض عليه بأن الحصرين اللذين ذكرهما في ﴿**لا**﴾ و ﴿**ما**﴾ غير صحيح وإن كانا يشعر بهما ظاهر كلام سيبويه. وقال الخفاجي: ما ذكر أغلبي أو مقيد بعدم القرينة القائمة على ما يخالفه، أو هو كلي ولا حجر في التجوز والحمل على غيره لمقتض كدفع التكرار هنا وإن قيل بتحقق الاستغراب على القول باشتراطه في الحكاية في عابد الأول وعدم ضرر فقده في الثاني لأن النصب به للمشاكلة وقيل: القرينتان الأوليان للاستقبال كما مر،

والأخريان للحال واختاره أبو حيان أي ولست في الحال بعابد معبوديكم، ولا أنتم في الحال بعابدي معبودي. وقيل بالعكس وعليه كلام الزجاج ومحيي السنة. وقيل الأوليان للماضي والأخريان للمستقبل نقله ابن كثير عن حكاية البخاري وغيره، ونقل أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية أن المراد بقوله سبحانه **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** نفي الفعل لأنها جملة فعلية وبقوله تعالى **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** نفي قبوله ﷺ لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه عليه الصلاة والسلام قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي إمكانه الشرعي، ونوقش في إفادة الجملة الاسمية نفي القبول ولا يبعد أن يقال إن معنى الجملة الفعلية نفي الفعل في زمان معين، والجملة الاسمية معناها نفي الدخول تحت هذا المفهوم مطلقاً من غير تعرض للزمان كأنه قيل: أنا ممن لا يصدق عليه هذا المفهوم أصلاً وأنتم ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم فتدبر. وقيل: الأوليان لنفي الاعتبار الذي ذكره الكافرون، والأخريان للنفي على العموم أي لا أعبد ما تعبدون رجاء أن تعبدوا الله تعالى، ولا أنتم عابدون رجاء أن أعبد صنمكم. ثم قيل: ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض بوجه من الوجوه، وكذا أنتم لا تعبدون الله تعالى لغرض من الأغراض وإيثار ما في ما أعبد قيل على جميع الأقوال السابقة على من لأن المراد الصفة كأنه قيل ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته، وجوز أن يقال لما أطلقت ما على الأصنام أولاً وهو إطلاق في محزه أطلقت على المعبود بحق للمشاكلة ومن يقول إن ما يجوز أن تقع على من يعلم ونسب إلى سيبويه لا يحتاج إلى ما ذكر وقال أبو مسلم: ما في الأوليين بمعنى الذي مفعول به، والمقصود المعبود أي لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله تعالى. وفي الأخريين مصدرية أي ولا أنا عابد مثل عبادتكم المبنية على الشك وإن شئت قلت على الشرك المخرج لها عن كونها عبادة حقيقة ولا أنتم عابدون مثل عبادتي المبنية على اليقين وإن شئت قلت على التوحيد والإخلاص، وعليه لا يكون تكرار أيضاً. وقال بعض الأجلّة في هذا المقام إن قوله تعالى **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** وقوله سبحانه **﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾** إما كلاهما نفي الحال أو كلاهما نفي الاستقبال، أو أحدهما للحال والآخر للاستقبال، وعلى التقادير فلفظ **﴿ما﴾** إما مصدرية في الموضعين وإما موصولة أو موصوفة فيهما، وإما مصدرية في أحدهما وموصولة أو موصوفة في الآخر وهذه ستة احتمالات حاصلة من ضرب الثلاثة في الاثنين. ولم يلتفت إلى تقسيم صورة الاختلاف إلى الفرق بين الأولى والأخرى، ولا إلى الفرق بين الموصولة والموصوفة لتكثر الأقسام لأن صور الاختلاف متساوية الاقدام في دفع التكرار، ومؤدى الموصولة والموصوفة متقاربان فيكتفى بإحداهما وكذا الحال في قوله تعالى **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** في الموضعين ومعلوم أنه لا تكرار في صورة الاختلاف سواء كان باعتبار الحال والاستقبال أو باعتبار كون ما في أحدهما موصولة أو موصوفة وفي الآخر مصدرية ونفي عبادتهم في الحال أو الاستقبال معبوده عليه الصلاة والسلام بناء على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراك المحبط لها وجعلها هباء منثوراً كما قيل:

إذا صافى صديقك من تعادي ... فقد عاداك وانقطع الكلام

ومن هنا قال بعض الأفاضل في إخراج الآية عن التكرار: يحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى **﴿لا أعبد ما تعبدون﴾** نفي عبادة الأصنام، ومن قوله تعالى **﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** نفي عبادة الله تعالى من غير تعرض لشيء آخر، ولما كان مظنة أن يقولوا لغفلة عن المراد أو نحوها كيف يسوغ لك أن تنفي عنك عبادة ما نعبد وعنا عبادة ما تعبد ونحن أيضاً نعبد الله تعالى غاية ما في الباب أنا نعبد معه غيره، أردف ذلك

بقوله سبحانه ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ الخ للإشارة إلى أنهم ما عبدوا الله حقيقة وإنما عبدوا شيئاً قالوا إنه الله، والله عز وجل وراء ذلك أي ولا أنا عابد في وقت من الأوقات الإله الذي عبدتم لأنكم عبدتم شيئاً تخيلتموه وذلك بعنوان ما تخيلتم ليس بالإله الذي أعبده، ولا أنتم عابدون في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته لأني إنما أعبد الإله المتصف بالصفات التي قام البرهان على أنها صفات الإله. النفس الأمري ويعلم منه وجه غير ما تقدم للتعبير بالكافرون دون المشركون وكأنه لم يؤت بالقرينتين الأوليين بهذا المعنى ويكتفى بهما عن الأخريين لأنهما أوفق بجوابهم مع أن هذا الأسلوب أنكى لهم فلا تغفل. ومن الناس من اختار كون ما في القرينتين الأوليين موصولة مفعولاً به لما قبلها والمراد بها أولاً آلهتهم وثانياً إلهه عليه الصلاة والسلام، والمراد نفي العبادة ملاحظاً معها التعلق بما تعلقت به من المفعول بل هو المقصود ومحط النظر كما يقتضي ذلك وقوع القرينتين في الجواب، ويعتبر الاستقبال رعاية للغالب في استعمال لا داخلة على المضارع مع كونه أوفق بالجواب أيضاً، ويكون قد تم بهم فكأنه قيل لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال من الآلهة أي لا أحدث ذلك حسبما تطلبونه مني وتدعوني إليه، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد في الحال وكونها في الأخريين مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر وقع مفعولاً مطلقاً لما قبل كما فعل أبو مسلم ليتضمن الكلام الإشارة إلى بيان حال العبادة في نفسها من غير نظر إلى تعلقها بالمفعول وإن كانت لا تخلو عنه في الواقع إثر الإشارة إلى بيان حالها مع ملاحظة تعلقها بالمفعول، ويراد استمرار النفي في كلتيهما كما في قول تعالى ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢ وغيرها] وفي ذلك من إنكائهم ما ليس في الاقتصار على ما تم به الجواب، فكأنه قيل: ولا أنا عابد على الاستمرار عبادة مثل عبادتكم التي أذهبتم بها أعماركم لأن عبادتي مأمور بها وعبادتكم منهي عنها، ولا أنتم عابدون على الاستمرار عبادة مثل عبادتي التي أنا مستمر عليها لأنكم الذين خذلهم الله تعالى وختم على قلوبهم وإني الحبيب المبعوث بالحق، فلا زلتم في عبادة منهي عنها ولا زلت في عبادة مأمور بها ولك أن تعتبر الفرق بين العبادتين بوجه آخر، واعتبار الاستمرار في ﴿**ما أعبد**﴾ يشعر به العدول عن ما عبدت الذي يقتضيه ما عبدتم قبله إليه، وعن العدول في الثانية إلى ذلك لأن أنواع عبادته عليه الصلاة والسلام لم تكن تامة بعد بل كانت تتجدد لها أنواع أخر فأتى بما يفيد الاستمرار التجددي للإشارة إلى حقية جميع ما يأتي به ﷺ من ذلك. وقال الزمخشري: لم يقل ما عبدت كما قيل ما عبدتم لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث وهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يعبدِ الله تعالى في ذلك الوقت، وتعقب بأن فيه نظراً لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة. ونص أبو الوفاء على ابن عقيل على أنه ﷺ كان متديناً قبل بعثه بما يصح عنه أنه من شريعة إبراهيم عليه السلام، وأما بعد البعث فقال ابن الجوزي في كتاب الوفاء: فيه روايتان عن الإمام أحمد إحداهما أنه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي لا من جهتهم ولا نقلهم ولا كتبهم المبدلة، واختارها أبو الحسن التميمي وهو قول أصحاب أبي حنيفة الثانية إن لم يكن متعبد إلاّ بما يوحى إليه من شريعته وهو قول المعتزلة والأشعرية، ولأصحاب الشافعي وجهان كالروايتين، والقائلون بأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله اختلفوا في التعيين فقيل: كان متعبداً بشريعة إبراهيم عليه السلام وعليه أصحاب الشافعي، وقيل بشريعة موسى عليه السلام إلا ما نسخ في شرعنا. وظاهر كلام أحمد أنه ﷺ كان متعبداً بكل ما صح أنه شريعة لنبي قبله ما لم يثبت نسخه لقوله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال ابن قتيبة: لم تزل العرب على بقايا دين إسماعيل عليه السلام كالحج والختان وإيقاع الطلاق الثلاث والدية والغسل من

الجنابة وتحريم المحرم بالقرابة والصهر، وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله تعالى والعمل بشرائعهم انتهى. والمعتزلة لم يجوزوا ذلك لزعمهم أن فيه مفسدة وهو إيجاب النفرة. نعم من أصولهم وجوب التعبد العقلي بالنظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيده سبحانه ومعرفته عز وجل ولا يمكن أن يخلى ﷺ بذلك. وفي الكشف العبادة قد تطلق على أعمال الجوارح الواقعة على سبيل القربة فالإيمان والنية والإخلاص شروط ومنه لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. واختلف أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بهذا المعنى قبل نبوته بشر أو لا فميل الإمام فخر الدين وجماعة من الشافعية وأبي الحسين البصري وأتباعه إلى أنه ﷺ لم يكن متعبداً، وأجابوا عن الطواف والتحنث وغيرهما من المكارم أنها لا تحرم من غير شرع حتى يقال الآتي بها لا بد أن يكون متعبداً بل هي من اقتضاء العادات المستمرة والمكارم الغريزية دون نظر إلى قربة، والزمخشري اختار ذلك القول وعليه بنى تفسيره. وقد ظهر أنه لم يخالف أصله في وجوب التعبد العقلي بالنظر في الآيات وأدلة التوحيد والمعرفة، ثم قال: والظاهر حمل ﴿**ما أعبد**﴾ على إفادة الاستمرار والتصوير على أنهم ما كانوا ينكرون ما كان عليه ﷺ فيما مضى عبادة كانت أو لا، بل كانوا يعظمونه ويلقبونه بالأمين إنما كان المنكر ما كان عليه بعد النبوة فلذلك قيل ثانياً ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ إذ لو قيل ما عبدت لم يطابق المقام، وفيه أن ما كانوا يتوهمونه من موافقته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة لم يكن صحيحاً بل إنما كان ذلك لأنه لم يكن ﷺ مأموراً بالدعوة انتهى. فتدبره. وزعم بعضهم أن تغاير الأساليب في هذه السورة لتغاير أحوال الفريقين وليس بشيء، وفي تكليف مثل هؤلاء المخاطبين بما ذكر على القول بإفادته الاستمرار على الكفر بالإيمان بحث مذكور في كتب الأصول إن أردته فارجع إليه وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة تبت إشارة ما إلى ذلك.

وقوله تعالى ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ**﴾ هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ وقوله تعالى ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ كما أن قوله تعالى ﴿**وَلِيَ دِينِ**﴾ عندهم تقرير لقوله تعالى ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ والمعنى أن دينكم وهو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات، وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم أو لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي لها، أو لأن ما وعدتموه عين الإشراك وحيث إن مقصودهم شركة الفريقين في كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتماً. وجوز أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ والآية على ما ذكر محكمة غير منسوخة كما لا يخفى أو المراد المتاركة على معنى إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك فهي على هذا كما قال غير واحد منسوخة بآية السيف. وفسر الدين بالحساب أي لكم حسابكم ولي حسابي لا يرجع إلى كل منا من عمل صاحبه أثر. وبالجزاء أي لكم جزاؤكم ولي جزائي. قيل: والكلام على الوجهين استئناف بياني كأنه قيل فما يكون إذا بقينا على عبادة آلهتنا وإذا بقيت على عبادة إلهك؟ فقيل ﴿**لكم**﴾ الخ. والمراد يكون لهم الشر ويكون له عليه الصلاة والسلام الخير، لكن أتى باللام في ﴿**لكم**﴾ للمشاكلة وعليه لا نسخ أيضاً، ويحتمل أن يكون المراد غير ذلك مما تكون عليه الآية منسوخة ولعله لا يخفى. وقد يفسر الدين بالحال كما هو أحد معانيه حسبما ذكره القالي في أماليه وغيره

أي لكم حالكم اللائق بكم الذي يقتضيه سوء استعدادكم، ولي حالي اللائق بي الذي يقتضيه حسن استعدادي والجملة عليه كالتعليل لما تضمنه الكلام السابق فلا نسخ. والأولى أن تفسر بما لا تكون عليه منسوخة لأن النسخ خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلاّ عند الضرورة وللإمام الرازي أوجه في تفسيرها لا يخلو بعضها عن نظر. وذكر عليه الرحمة أنه جرت العادة بأن الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك لا يجوز لأن القرآن ما أنزل ليتمثل به بل ليهتدى به، وفيه ميل إلى سد باب الاقتباس والصحيح جوازه فقد وقع في كلامه عليه الصلاة والسلام وكلام كثير من الصحابة والأئمة والتابعين، وللجلال السيوطي رسالة وافية كافية في إزالة الالتباس عن وجه جواز الاقتباس وما ذكر من الدليل فأظهر من أن ينبه على ضعفه. وقرأ سلام ويعقوب «ديني» بياء وصلاً ووقفاً وحذفها القراء السبعة والله تعالى أعلم.